الانشاء المترهل

شرع الدكتور شميل يطبع كتابه « حوادث وخواطر » وأتيح لنا ان نقف على مقدمته فاقتطفنا منها الكلمة الآتية في انتقاد هذا النوع من الانشاء الذي ضاع فيه فريق من كتاب العصر قال :

عنيتُ في الصيف الماضي (١٩١٢) بتقييد بعض حوادث مما مرَّ عليَّ ، وتعليق بعض خواطر مما يعنّ لي ، عسايَ ان أجد فيها ما أشغل بهِ أوقات الفراغ . وأفرّج كُرَب العزلة . حتى اذا كاد الصيفُ ينقضي نشبت الحرب البلقانية ، فوقفتُ في تلك حيث وقفت ، وعلّقت على هذه ما علّقت . — ثم ضممتُ الى ذلك بعض ما تيسر لي العثور عليهِ من مطويٍّ لم يُنشر ، ومنشورٍ مبعثر . وجمعتُ الكل في هذا الكتاب ، فجاء « من كل حرش عصا » او — من كل نبتة زهرة — على ذوق القاريْ . وسمَّيتهُ « حوادث وخواطر »

حوادث هي بعض مذكَّراتي في حياتي القليلة الاختلاط الكثيرة الاعتزال . ان لم تتسع للرواية فقد تستوقف بدقة التحليل ؛ وان أقفرت من القديم المأنوس فقد يكون فيها شيء من الجديد الطليّ ؛ وان كثر فيها الجدُّ فقد لا تخلو من الفكاهة ؛ وان كثرت فيها المعلّقات الخصوصية فلم أُهمِل من خلالها المرامي العمومية . — حوادث لم أنقلها عن يومية مدوَّن فيها كلُّ ما كان يعرض لي كما يفعل البعض ، ولا سيما الافرنج في مذكَّراتهم ، ولكنني اعتمدتُ فيها على ذاكرةٍ قلما تخونني في الوقائع ، وان كانت تتعثر كثيراً في التاريخ

وخواطر هي بعض أفكاري أُطلقها تجول في ما حولي ، وتمرُّ بي حتى أعماق نفسي ، وتنطلق عن نظري الخاصّ ولو خالفت أحكامي أحكام سواي . وان لم أدَّعِ لها العصمة فاني أربأُ بها ان تميلَ مع الهوى ولو لَقِيَتْ ما لَقِيَتْ من عواصف

العواطف الغالبة حتى الساعة على أفعال سائر الناس ، والمتمكنة فينا اكثر من سوانا على نوع خاصّ

حوادث وخواطر سردتها سرداً كما جاءت غير متّبعٍ فيها نهجاً مخصوصاً . ولم أتعمّل فيها غالباً لئلاّ يجنح بي جواد المبنى فيخرجني عن جادّة المعنى . فهجرت الوحشيّ الفحليّ ، ولم أقع في الحضريّ المترهّل ، وتقرّبتُ كثيراً من العامة ، عسى ان تكون البلاغة في ما كان أدنى الى تبليغ المراد

قلت الحضريّ المترهل لأني أرى اليوم مَيلاً كبيراً للتباري في نهج من الانشاء إن أجاد فيهِ البعض فقد قلّ فيهِ المفلحون . وان حلا في بعض المواقف فمن المُصاب ما يُغشي . يترقق فيهِ اللفظ حتى لا يكاد يغشى السمع . يطوف على الازهار ويناجي نفوس الكواكب ، ويستمطر دموع الملائكة ، ويثير أشجان القلوب . ولكن يحار الجنان في فهمهِ اذا تقصّاه الى لبّه . فلا هو نشيد الاناشيد ، ولا هو مراثي أرميا ، ولا هو مصابرة أيوب ، حتى ولا هو تسبيح داود على قيثارتهِ . أو هو خليط منها يتلألأ ولكن كالبرق الخلّب . ولا يبقى من جيّده في الذهن الا أثر النسيم على صفحات الماء ، ومن رديئهِ الا أثر الكابوس في الحالم . وشأنهُ في الحالين شأن الماس الكاذب ، فلا هو حليةٌ للتنافس ، ولا هو الفحم النافع باعتبار ان الماس الحقيقي فحم متبلور . — كأننا لم نهجر التقعر الجاف الا لنقع في الرقيق المائع . وبينهما ضحايا الفكر مقتولة على مذبح هيكل العواطف الثائرة او الذابلة . — ولكم عرض لي وأنا أسمع هذا الشعر الجديد المنثور ، ان تذبل عيناي ، وتتدلى يداي ، وينهادى ذراعاي ، كأنهما جناحان هبّا بي للتصفيق ولكنهما هبّا متكسرين كأني بهما الطير الواقع . — وما الناس بحاجة الى هذا التنويم المخدّر بعد ذلك المثار الجاهلي المدمّر

قلت اني تقرّبت كثيراً من العامة ، ولا أريد بذلك اني تنزّلت اليهم ، بل اريد اني تحديتُ الأسلوب الذي ينفتح للجميع على حد سواء ، بدون أن يُضطرّ فيهِ الى تعمّلٍ يوجبه التأنق في الانشاء ، كثيراً ما يذهب بجهد الكاتب ، وقد يستهل

فهم القارئ حيث يجب ان يُستحثّ ، ونحن ان لم نكن في عصر بالقياس الينا فالى عصر بالقياس الى سوانا الوقت فيه ثمين ، عسانا أن لا نبقى مقيدين في الأغلال على الاجيال . واستعملتُ كثيراً من ألفاظهم التي تعبر جيداً عن المراد ، والتي ان وجد بعد العناء في معجم اللغة ما يقوم مقامهـا ، فقد يعزُّ حتى على الأديب مغزاه حتى يتقصاه في مكانه ، والمقصود من الكتابة ليس الإغلاق . كما اني أثبتُّ كثيراً من كلامهم الجاري مجرى المثل ، لأن الأمثال حكمة الشعوب التي تعبر عن أحوالهم ومجرى أفكارهم في كل أطوارهم . ونهجت نهج الأمم الراقية من متقدمين ومتأخرين ، ونهج العرب أنفسهم في ابّان حضارتهم في مستحدثات الصناعة ومستنبطات العلم ، فلم اتحوّل عن مسمياتها في لغاتها ، الاّ حيث أمنت اللبس ولم أخشَ التشويش ، ولا سيما في هذا العصر الكهربائي الذي يتدفق فيه المستجد كل يوم تدفق السيل ، حتى صار التحوُّل عنهُ الى أوضاع الاجتهاد خروجاً عن المأنوس المدرك الى الوحشيّ المغلَق ، متبعاً في كل ذلك سنّة التحوُّل التي تتناول كل شيء في الطبيعة والانسان في العمران ، والتي لا يقوى عليها حتى ولا الجامدون المتمكنون من جمودهم مهما جمدوا

حوادث وخواطر لم أدارِ فيهـا ولم أحابِ ، وان أغضب ذلك النفوس التي لم تألف الا الهدهدة . واذا كنت أُكثر فيها من الانتقاد أطلقهُ على ما حولي وأتناول بهِ حتى نفسي فلأن الانتقاد يبعث على التفكير . عسى ان يغلب علينا ما لا نحبّ مما يُحمد « فنحسّ بفكرنا » لا اننا « نفتكر دائماً بشعورنا » وقلما تنجح أعمال العقل اذا غلبته العواطف

ولا أخشى حملات العقلاء ، فاحترام كل فكر ضروري لحياة الفكر . والاصغاء الى كل نظر واجب . — وأدفع حملات سواهم متستنصراً عليهم أبناءهم من أصلابهم فهم الذين يثأرون منهم . يثأرون الافراد المجنيّ عليهم والمجتمع الذي يسيئون اليهِ . وسرعان ما يكون هذا الاثار اليوم

الدكتور سمبل